التفكير البلاغي في القرآن بين الإمام عبد القاهر الجرجاني

والعلامة الزمخشري: دراسة تأثير وتأثير

A Theoretical Review of Qur'ānic Diction as Observed by Jurjānī and its Impact on Zamakhshārī

by

Sayed Abdūl Salām Bāchā

Associate Lecturer, Department of Arābic, International Islāmīc University
Islāmabād, Pakistan

Email: agha21179@gmail.com

Dr. Ḥabīb Ūllah Khān

Assistant Professor, Department of Arābic, International Islāmīc
University Islāmabād, Pakistan

Email: habibullah@iiu.edu.pk

Abstract:

Qur'ānic Ḥjāz can only be understood if well versed with the diction of the Holy Qur'ān. Nobody can claim that he or she has a full command over the Holy Qur'ān, understands its lexical, semiotic, syntactical and rhetoric features because it is a divinely authored book well beyond the scope of human understanding. Right from outset time to this day all commentators of the Holy Qur'ān agree on this point that if anyone intends to get accurate meaning of any word or verse of the holy Qur'ān, he or she should first properly consult the works of the Mufasssīrīn or expert opinions of the interpreters of this holy scripture as it is very difficult for a common reader to understand it without any consultation. On one hand, the holy Qur'ān seems to be an easy book, yet it poses great difficulty in understanding the underlying message or get to the depth of its meanings. In short, it is an easy text for a common reader because the verses of the holy Qur'ān contain difficult layers of meanings and then what makes it prominent is its rhetorical language and rich examples of insights. This meticulous book can be approached from two different perspectives i.e theoretical and empirical manner. Allāma Abd al-Qāhir al-Jurjānī applied the theoretical approach to understand the miracles of the Holy Qur'ān while Allāma Zamakhshārī resorted to the empirical access to the holy scripture and the latter has been inspired by the former in his book Tafsīr al- al-Kashāf .

Keywords: Arabic Rhetoric, Ḥjāz, Tafsīr, al-Jurjānī, Zamakhshārī

المدخل:

حينما بدأ أهل السنة والجماعة يسهمون في فضح الشبهات المؤسَّسة على علم الكلام المعتزلي في تفسير كتاب الله العلي العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه له لحافظ، أخذ سلطان المعتزلة على التفسير العلمي يتضعضع، وزاده وهناً حينما بدأ أهل السنة وهم كانوا سوى المعتزلة يصبون اهتماماتهم على تفسير كتاب الله - جل وعلا - فقاموا بتأليفات قيمة، وتفسير مستقيمة. حتماً إنهم استعانوا في استخراج نكت علمية بعلم البلاغة، فاستندوا إليه، واعتضدوا به في استخراجاتهم العلمية واستنتاجاتهم الثمينة، وفي الوقت الذي كانت النكت البلاغية والدقائق اللطيفة تعرض في مجالس الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٣٦هـ ظهر في أفق السماء من كشف آفاقاً جديدة في علم البلاغة، ووسَّع جوانب معارفها حيث بلغت شهرته الآفاق وملأت بقاع الأرض كلها كان ذلك العبقرى الإمام عبد القاهر الجرجاني عالماً جهيداً من الجهابذة العظام، متضلِّعاً في المعارف، خبيراً بغوامض الأمور البلاغية، نَقَّادا محترفاً. صار العلماء يُدهّاه يقتدون في العصر الذي فسد الذوق الأدبي فيه.

يُعدُّ العلامة الزمخشري من الأملعين الذين فهموا بلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني وأدركوا مغزاها، ووعوا فحواها، ثم أنتجوا فأنتجوا مطبقين إياها على القرآن الكريم. وتعود إليه رئاسة حمل لواء مطبقي بلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني بكل حنكة وذكاء ولطف.

كان للإمام عبد القاهر الجرجاني اطلاع واسع على التراث الأدبي والنقدي والبلاغي، فاستفاد الكثير من المعلومات من قراءاته المكررة والمعادة، وكان مثقفاً بارعاً في النحو العربي فوضع قاعدة البلاغة على النحو العربي وجعل لها أساساً معززاً، فقرأ الخليل وسيبويه والزجاج وثعلب وأبا علي الفارسي وابن جني وغيرهم من أعلام النحو العربي كما قرأ في النقد والبلاغة الجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وأبا هلال العسكري والقاضي عبد العزيز الجرجاني وغيرهم.

فالإمام عبد القاهر الجرجاني كان نحويًا أكثر منه بلاغياً، وعلى الرغم من ذلك فإنه ما حظي بشهرة وافرة فيه، وما نال مكانةً وحُظوةً منه، وما علا شأنه فيه، بل على العكس إنه قد حظي منزلةً مرموقةً ومكانةً رفيعةً وحُظوةً لا نظير لها حتى يومنا الحالي لتقديمه فكرةً عريقةً في المجد والسؤدد في بلاغة الكلام وفصاحته، وبخاصة بلاغة القرآن الكريم ما عُرف مؤخراً بنظرية النظم أو علم النظم القرآني، صارت فكرة "النظم" بذرةً أولى في ترويح البلاغة العربية ونهوضها، وأمضت نقطة تحولٍ مؤخراً في تاريخ البلاغة العربية.

وضع الإمام عبد القاهر الجرجاني وضعا دقيقا لعلمي البلاغة: المعاني والبيان في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة". تحدث في "أسرار البلاغة" عن وجوه الحسن ومواقعه ومواطنه في الكلام، وبحث في دلائل الإعجاز عن الموضوع نفسه إلا أنه قد زاده ببحث آخر

وهو الحديث عن الإعجاز القرآني. إنه أَلَفَ رسالةً سماها "الشفافية" ويَبَيِّنُ فيها حقيقة الإعجاز واستغرق الفكرة واستوعبها وأتى بما يثبتها من القرآن الكريم.

تميز أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" بتدقيق المسائل وتحليلها واستقصائها بنظر عميق، وعرضها عرضاً فلسفياً واعياً، ودورها في إثراء الذوق وتنميته في عمل أدبي، وتَبَيَّنَ في محاسن الكلام ومزايه وعيوبه، والبحث فيه بحثاً مدعوماً بالقضايا النفسية والوصفية والتاريخية والاجتماعية والجمالية والنقدية والأدبية. وقد وضعت في الصفات السابقة صفة "الأدبية" في الأخير، ليس ذلك من عفو الخاطر، بل إنه ليرمز إلى أن "الأدب" كان محور كتابيه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة أي: لم يفصل الإمام عبد القاهر الجرجاني الفنون البلاغية الثلاثة: المعاني والبيان والبديع عن الحقل الأصيل وهو الأدب، إنه ربطها ربطاً وطيداً بأدبية النص: شعراً أو كان نثراً.

ولأن للإمام عبد القاهر الجرجاني دور كبير في إثراء علوم البلاغة العربية وتطويرها وتقديرها تقديماً خالصاً لا يشوبه شيء من العجماء ولا يفسده خلل ولا يحتله ما هو منكراً أو مهجوراً، عَدَّه الجمهور واضح البلاغة العربية ومؤسسه، فاحتذاه العلماء واقتدوه لتأثيره البالغ بهم.

ومن أبرز العلماء الذين تأثروا بالإمام عبد القاهر الجرجاني هو العلامة الزمخشري صاحب الكشف، إنه يمت إلى الأدب والأدبية بصلات بارزة، لا يخفى على الناظر إليه خافية إلا أنه صاحب علم وعرفان في البلاغة العربية من جهة، وصاحب مذهب جدلي اعتزالي من جهة أخرى. لقد رُزِقَ العلامة الزمخشري مواهب الإمام عبد القاهر الجرجاني من صدق النظرة ولطافة الحس ورقة الاستشفاف في تحليل بلاغة القرآن الكريم إلا أن الإمام قد رُزِقَ انطباعاً في التعبير واسترسالاً في التوجيه واطراداً في النسق، ما استطاع العلامة الزمخشري أن يبلغ شأوَ الإمام في ذلك وهذا ما يميّز الإمام من العلامة الزمخشري.

ولعل الأمر يتجلى وينكشف برمته عند من ينقّب عن الفكرة بنظرة فاحصة وعقل ثاقب حيث اتكأ صاحب الكشف العلامة الزمخشري على الإمام عبد القاهر الجرجاني واعتمد عليه اعتماداً كلياً واعتضد به اعتضاداً محتوماً لا يخفى على من ينقب عن الأمر وينظر إليه بنظرة ذكية وعقل ثاقب. جاء صاحب الكشف، العلامة الزمخشري بنكت لطيفة في بلاغة القرآن الكريم في طوايا تفسيره، الكشف للاستناد إلى الإمام عبد القاهر الجرجاني، فاستقى من فيض خاطره وسقاه الآخرين.

العلامة الزمخشري

هو جار الله محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، كان أعجمياً، ملتزماً بالمتزع الاعتزالي، ومتعصباً للعروبة والعربية من أجل كونها لغة كتاب الله الخالد. ولد بزمخشر من

إقليم خوارزم الفارسي سنة ٤٦٧هـ، وكان مذهب الاعتزال مزدهراً في ذلك العصر، ولهذا اعتنقه العلامة الزمخشري.

توفي العلامة الزمخشري عام ٥٣٨هـ، وكان للعلامة الزمخشري ممثلاً بإحدى رجليه، ولما دخل بغداد سأله الدامغانى الفقيه الحنفي عن سبب قطعها، فقال: دعاء الوالدة، وذلك أننى في صباى أمسكت عصفوراً وربطته بخيط في رجله وانفلت من يدي فأدركته وقد دخل في خرق فجذبتة فانقطعت رجله في الخيط فتألمت أُمى لذلك وقالت: قطع الله رجل الأبعد كما قطع رجله، فلما وصلت إلى سن الطلب رحلت إلى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل، وعملت عملاً أوجب قطعها^(١).

وكان العلامة الزمخشري حنفي المذهب، أحب الإمام الشافعي ونوه بمكانته، وذكر عنه أنه من أعلام العلم وأئمة الشرع، ورؤوس البلاغة.

الإمام عبد القاهر الجرجاني

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، من أسرة فارسية، نشأ في كنفها من المولد إلى الوفاة، وأقام بجرجان مع أسرته، وهي يومئذ حافلة بمختلف الاتجاهات الفكرية التي تلخص حياة المسلمين الفرس، فحصل العلوم العربية والقرآنية التي كان لها الأثر الكبير في ثقافته الكبيرة، وفي ذوقه الفني الرائع، ولم تذكر كتب التراجم عن مولده شيئاً، وكل ما ذكره كان عن وفاته وأنه توفي عام ٤٧١هـ على اختلاف الآراء.

مؤلفات عبد القاهر:

برع الإمام عبد القاهر في علوم اللغة العربية فألف في النحو والصرف، والبلاغة والإعجاز، والعروض وغيرها، إذ ألف كتاب المغنى في النحو، والمقتصد، والإيجاز، والجمل، والعوامل المائة، والعمدة في التصريف، ثم رسالة في شرح فاتحة الكتاب، وكتاب المعتضد في إعجاز القرآن، والرسالة الشافية في إعجاز القرآن، ودلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والمختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبى تمام.

وسنعرض لكتابه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، لأن علماء البلاغة بعد الإمام عبد القاهر قد اقتفوا أثره وتعلموا على ما كتبه ونهجوا نهجه، ولخصوا كتابيه بما فيهما من أثر عظيم له ريادته في فن البلاغة.

تأثر عبد القاهر وأثره:

تأثر عبد القاهر بكثير ممن سبقوه من علماء البلاغة أمثال: المبرد في الكامل، وقدامة بن جعفر في نقد الشعر، ونقل عنهما كثيراً في الأسرار، والدلائل، وتأثر كذلك بالأمدي، ونهج نهجه في التعليق على كثير من الأبيات، وتأثر بالقاضي الجرجاني أكثر من غيره، ولعله يرجع ذلك إلى الأثر البيئي الجرجاني الذي جمع بينهما، وبالتالي دفعه نحو تعلمه على يدى القاضي فتأثر وثقف.

وتأثر الإمام أيضاً بأبي هلال العسكري صاحب الصناعتين، وبالجاحظ كثيراً (بل إن كثيراً من أمثال عبد القاهر وشواهد مأخوذة من البيان والتبيين، وذلك ظاهر جلي)^(٢).
وممن تأثر بهم عبد القاهر: ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة، وابن رشيق القيرواني في العمدة، وغيرهم.

أثره فيمن بعده

كان تأثير الإمام عبد القاهر فيمن بعده قوياً جارفاً، وهذا التأثير يمكن أن يستخلص في شعب ثلاث:

— الأول: اتجاه يغلب عليه التقعيد والضبط كالرازي والسكاكي ومن دار في فلكه.
— الثاني: اتجاه يغلب عليه التحليل الذي يعتمد على الذوق الأدبي كابن الأثير والعلوي.

— الثالث: اتجاه يطبق بلاغة الإمام تطبيقاً دقيقاً كالعلامة الزمخشري في تفسيره الكشاف الذي يعد مدرسة متميزة وممتدة في التفسير^(٣).

نماذج التأثير والتأثير

وإليك من النماذج التي تبلور تأثير العلامة الزمخشري بالإمام عبد القاهر الجرجاني وتأثيره فيه بكاملها، وفي الباب أمثلة كثيرة، وشواهد عديدة، ونوجز الحديث عنها في مسائل هامة للبلاغة العربية عموماً والبلاغة القرآنية خصوصاً:

الأول: مسألة ترك الذكر أو الحذف

الثاني: مسألة القصر بإنما وما وإلا

الثالث: مسألة التقديم والتأخير

الرابع: مسألة المجاز

الأول: أنموذج ترك الذكر أو الحذف:

قال العلامة الزمخشري في تفسير آية سورة القصص وهي:

"وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَذِينٌ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ"^(٤).

فإن قلت: لم ترك المفعول غير مذكور في قوله: "يَسْقُونَ" و "تَذُودَانِ" و "نَسْقِي"؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول. ألا ترى أنه إنما رحمهما؛ لأنهما كانتا على الزياد وهم على السقي. ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقمهم إبل مثلاً، وكذلك قولهما "لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ" المقصود فيه السقي لا المسقي^(٥).

والمعنى نفسه الذي جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني قائلاً: "وإن أردت تبيناً لهذا الأصل، أعني وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله، ولا يدخلها

شوب، فانظر إلى قوله تعالى: "وَمَا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ. فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ" ففيها حذف مفعول في أربعة مواضع، إذ المعنى: "وجد عليه أمة من الناس يسقون" أغنامهم أو مواشيهم، "وامرأتين تذودان" غنمهما، وقالتا: "لا نسقي غنمنا، فسقى لهما" غنمهما.

ثم إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره، ويؤتى بالفعل مطلقاً. وما ذاك إلا أن الغرض في أن يُعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأنها قالتا: لا يكون منا سقي حتى يُصدر الرعاء، وأنه كان من موسى - عليه السلام - من بعد ذلك سقي. فأما ما كان المسقي؟ أغنماً أم إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن الغرض، وموهم خلافه. وذاك أنه لو قيل: "وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما"، جاز أن ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود، كما أنك إذا قلت: "ما لك تمنع أخاك؟" كنت منكراً بالمنع، لا من حيث هو منع، بل من حيث هو منع أخ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه^(٦).

يدل التوافق والتطابق والتماثل والتداخل بين هذين النصين بكل وضوح أن العلامة الزمخشري تأثر تأثراً كبيراً في تحليل الآية القرآنية (وأخواتها) تحليلاً بلاغياً بالإمام عبد القاهر الجرجاني إلا أن ما جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني هو أكثر وضوحاً وأقرب إلى الفهم وأغنى فائدة وأعلى عناية وأدنى اقتناعاً للقارئ المعاصر مما جاء به العلامة الزمخشري.

الثاني: أنموذج القصر بإنما وما وإلا:

يقول العلامة الزمخشري - أيضاً - في تفسير آية من سورة فاطر، قال - تعالى -:

"وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ".^(٧) "فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو آخر؟ قلت: لا بدّ من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم "الله" وأخرت "العلماء" كان المعنى: إنّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله تعالى: - وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ - وهما معنيان مختلفان"^(٨).

بينما الإمام عبد القاهر الجرجاني فيقول في المسألة نفسها بأسلوب مقنع واضح: "وهنا كلام ينبغي أن تعلمه، إلا أنني أكتب لك من قبله مسألة، لأن فيها عوناً عليه. قوله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" في تقديم اسم الله عز وجل معنى، خلاف ما يكون

لو أُجِر. وإنما يبين لك ذلك إذا اعتبرت الحكم في "ما" و"إلا" وحصلت الفرق بين أن تقول: "ما ضرب زيداً إلا عمرو"، وبين قولك: "ما ضرب عمرو إلا زيداً".

والفرق بينهما أنك إذا قلت: "ما ضرب زيداً إلا عمرو" فقدمت المنصوب، كان الغرض بيان الضارب من هو، والإخبار بأنه عمرو خاصةً دون غيره. وإذا قلت: "ما ضرب عمرو إلا زيداً"، فقدمت المرفوع، كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه "زيد" خاصةً دون غيره.

وإذ قد عرفت ذلك فاعتبر به الآية. وإذا اعتبرتها به علمت أن تقديم اسم الله إنما كان لأجل أن الغرض أن يبين الخاشعون من هم، ويُخبر بأنهم العلماء خاصةً دون غيرهم. ولو أُخِر ذكر اسم "الله"، وقُدِّم "العلماء" فقليل: "إنما يخشى العلماء الله"، لصار المعنى على ضده ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشيين من هو، والإخبار بأنه الله -تعالى- دون غيره. ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله -تعالى- مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله -تعالى- أيضاً، إلا أنهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله -تعالى-. وهذا المعنى، وإن كان قد جاء في التنزيل في غير هذه الآية كقوله تعالى: "وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ" فليس هو الغرض في الآية، ولا اللفظ بمحتمل له البتة. ومن أجاز حملها عليه، كان قد أبطل فائدة التقديم وسوّى بين قوله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" وبين أن يقال: "إنما يخشى العلماء الله". وإذا سوّى بينهما، لزمه أن يسوّى بين قولنا: "ما ضرب زيداً إلا عمرو"، وبين: "ما ضرب عمرو إلا زيداً". وذلك ما لا شبهة في امتناعه^(٩).

لو أمعن القارئ في النصين السابقين، نص العلامة الزمخشري، صاحب الكشاف، ونص الإمام عبد القاهر الجرجاني لأدرك أن كلام العلامة الزمخشري مختصر، وفيه شيء من غموض وإجمال وخفاء ما يعيق طريق وصول القارئ إلى درك المسألة وفحواها، بينما كلام الإمام عبد القاهر الجرجاني فإنه مفصّل ومزوّد بالبراهين المقنعة والحجج الغانية، إنه جاء بأمثلة توضّح جوانب المسألة ومداركها، ويصل من خلال شرح المسألة وتفسيرها إلى الإبانة عن الغرض البلاغي في الآية حيث يجعل القارئ يبلغه بكل يسر وسهولة.

الثالث: أنموذج التقديم والتأخير

يقول العلامة الزمخشري في تفسير آية من سورة الأنعام، قال تعالى:

"وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ"^(١٠): "إن جعلت "لله شُرَكَاء" مفعول

"جعلوا"، نصبت "الجن" بدلاً من شركاء، وإن جعلت "لله" لغواً

كان "شُرَكَاء الجن" مفعولين قدم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما

فائدة التقديم؟، قلت: فائدته استعظام أن يتخذ الله شريك من

كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء" ^(١١).

وهذا المعنى عين المعنى الذي جاء به الإمام عبد القاهر الجرجاني بكل بسط وتفصيل قائلاً: "ومثال ذلك قوله - تعالى -: "وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ" ليس بخافٍ أن لتقديم "الشركاء" حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب، أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخّرت فقلت: "وجعلوا الجنّ شركاء لله"، وأنت ترى حالك حال من نُقل عن الصورة المبهجة والمنظر الرائق والحسن الباهر، إلى الشيء الغُفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل، ولا تصير النفس به إلى حاصل. والسبب في أن كان ذلك كذلك، هو أن للتقديم فائدة شريفة، ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير بيانه، أنّا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجنّ شركاء، وعبدوهم مع الله -تعالى-، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى، ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجن ولا غير الجن.

وإذا أخرجنا: "جعلوا الجن شركاء لله"، لم يُفد ذلك، ولم يكن في شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله - تعالى -، فأما إنكار أن يُعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير "الشركاء" دليل عليه. وذلك أن التقدير يكون مع التقديم: أن "شركاء" مفعول أول لجعل، و "الله" في موضع المفعول الثاني، ويكون "الجن" على كلام ثانٍ، وعلى تقدير أنه كأنّه قيل: "فمن جعلوا شركاء لله - تعالى -"، فقول: "الجن"، وإذا كان التقدير في "شركاء" أنه مفعول أول، و "الله" في موضع المفعول الثاني، وقع الإنكار على كون شركاء لله - تعالى - على الإطلاق، ومن غير اختصاص شيء دون شيء، وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن، لأن الصفة إذا ذكرت مجرّدة غير مُجرّاة على شيء، كان الذي تعلّق بها من النفي عامّاً في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة.

فإذا قلت: "ما في الدار كريم"، كنت نفيت الكينونة في الدار عن كلّ من يكون الكرم صفة له. وحكم الإنكار أبداً حكم النفي. وإذا أُخّر فقول: "وجعلوا الجن شركاء لله"، كان "الجن"، مفعولاً أول، و "الشركاء" مفعولاً ثانياً وإذا كان كذلك، كان "الشركاء" مخصوصاً غير مطلق، من حيث كان محالاً أن يُجري خبراً عن الجن، ثم يكون عامّاً فيهم وفي غيرهم، إذا كان كذلك، احتمال أن يكون القصد بالإنكار إلى "الجن" خصوصاً، أن يكونوا "شركاء" دون غيرهم، جلّ الله - تعالى - عن أن يكون له شريك وشبيه بحال.

فانظر الآن إلى شرف ما حصل من المعنى بأن قدّم "الشركاء"، واعتبره فإنه ينبغي لكثير من الأمور، ويدلك على عظم شأن "النظم"، وتعلّم به كيف يكون الإيجاز به، وما صورته؟ كيف يُزاد في المعنى من غير أن يُزاد في اللفظ؟ إذ قد ترى أن ليس إلا تقديم وتأخير،

وأنه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى، ما إن حاولته مع تركه لم يحصل لك، واحتجت إلى أن تستأنف له كلاماً، نحو أن تقول: "وجعلوا الجن شركاء لله، وما ينبغي أن يكون لله شريك من الجن ولا من غيرهم"، ثم لا يكون له إذا عُقل من كلامين من الشرف والفخامة، ومن كرم الموقع في النفس، ما تجده له الآن وقد عُقل من هذا الكلام الواحد" ^(١٢).

والغرض الأساسي من المجيء بالاعتباسين: الاقتباس من تفسير العلامة الزمخشري: الكشف ثم الاقتباس الطويل من دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني لعرض الموازنة بالإيجاز بين أسلوبيهما من طرف، وعرض جوانب المسألة برمتها من طرف آخر من خلال الحديث عن تلك المقارنة، فالمعنى متحد والملفوظ مختلف، والتوافق على هذا القدر الكبير في دراسة المضمون والفحوى يدل على أن العلامة الزمخشري قد تأثر - على وجه كبير - بالإمام عبد القاهر الجرجاني، غير أن أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني فإنه في غاية الطلاقة والجزالة والرصانة والفصاحة والبيان.

الرابع: أنموذج المجاز:

تأثر العلامة الزمخشري بالإمام عبد القاهر الجرجاني في باب المجاز، فقال في تفسير آية من سورة البقرة: "فَمَا رِبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ" ^(١٣) "فإن قلت: كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها؟، قلت: هو من الإسناد المجازي، وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له، كما تلبست التجارة بالمشتريين" ^(١٤).

قام الإمام عبد القاهر الجرجاني بتحليل هذه الآية مبينا المجاز فيها، يقول: "اعلم أن طريق المجاز والاتساع في الذي ذكرناه قبل، أنك ذكرت الكلمة وأنت لا تريد معناها، ولكن تريد معنى ما هو ردف و شبيهه. فتجاوزت بذلك في ذات الكلمة، وفي اللفظ نفسه. وإذا قد عرفت ذلك: فاعلم أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل، وهو أن يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة فقط، وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها، ويكون معناها مقصوداً في نفسه، ومراداً من غير تورية ولا تعريض. والمثال فيه قولهم: "نهارك صائم، وليك قائم"، و"نام ليلى، وتجلّى هي". وقوله تعالى: "فَمَا رِبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ" وقول الفرزدق:

سقتها خروق في المسامع لم تكن عِلَاطاً ولا مخبوضة في الملاغم

أنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا في ذوات الكلم، وأنفس الألفاظ، ولكن في أحكام أجريت عليها، أفلا ترى أنك لم تتجاوز في قولك: "نهارك صائم، وليك قائم" في نفس صائم وقائم؟، ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار والليل. وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة "ربحت" نفسها، ولكن في إسنادها إلى التجارة. وهكذا الحكم في قوله: "سقتها خروق"، ليس التجوز في نفس "سقتها"، ولكن في أن أسندها إلى الخروق. أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته؟ فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم

غير القيام، ولا برحت غير الريح، ولا بسقت غير السقي، كما أريد بـ"سالت" في قوله: "وسالت بأعناق المطي الأباطح" غير السيل.

واعلم أن الذي ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله هاهنا. فليس يشتبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله: "فنام ليلى وتجلّى هي"، كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت: "فنمت في ليلى وتجلّى هي"، كما لم يكن الحال في قولك: "رأيت أسداً" كالحال في "رأيت رجلاً كالأسد". ومن الذي يخفى عليه مكان العلو، وموضع المزية، وصورة الفرقان بين قوله تعالى: "فما ربحت تجارتهم"، وبين أن يقال: "فما ربحوا في تجارتهم". وإن أردت أن تزدد للأمر تبيناً، فانظر إلى بيت الفرزدق:

يحيى، إذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعل
وإلى رونقه ومائه، وإلى ما عليه من الطلّاة. ثم ارجع إلى الذي هو الحقيقة، وقل: "نحني إذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل، ثم اسبر حالك، هل ترى مما كنت تراه شيئاً؟" (١٥).

امتاز أسلوب الإمام عبد القاهر الجرجاني عن العلامة الزمخشري وأمثاله في باب المجاز وأخواته، إنه انفرد بروعة العبارة واتصف بجمال الكلام وفتنة الوضوح وبهاء السلاسة والرقّة والانسجام. خلا كلامه من أي تعقيد أو غموض، فالقارئ يدرك بمجرد إلقاء النظر على نصه فحواه ومرماه ومغزاه، إلا أن الأول اختصر في الكلام عن المسألة وأوجزها واستشهد بالمثل العربي في المعنى الذي يقصده، أما الآخر فإنه أطال النظر وأمعنه ونظر إلى المسألة ملياً، وهذا الفرق بين الأسلوبين من أجل الفرق في غرضيهما، كان مقصد الأول هو تفسير القرآن الكريم، ومن خلاله الإشارة إلى القضايا البلاغية، وكان مقصد الإمام عبد القاهر الجرجاني هو توضيح القضايا البلاغية، ومن خلالها ذكر الآي القرآنية واستشهد بها وأشار إلى ما هو المقصود الأهم والأولى من القراءة في البلاغة العربية فهم كتاب الله العزيز، والإيمان بإعجازه، والأسلوب الأمثل للأول الاختصار فاختصر، وللآخر الإطالة فأطال.

الخاتمة:

- توصل البحث أخيراً إلى بعض النتائج، ومن أهمها ما يلي:
- إن القرآن الكريم لا يمكن فهمه فهما مستقيماً دونما تدقيق بلاغة أساليبه.
- لا يستغنى القرآن الكريم عن البلاغة العربية، لأن معانيه ناجمة عن تلك البلاغة القديمة: العربية الجاهلية.
- إن قضية التأثير والتأثير قضية ساخنة بين القدامى والمحدثين، والمثل الأعلى في الدراسات القرآنية هو العلامة الزمخشري حيث تأثر تأثراً كبيراً بالإمام عبد القاهر الجرجاني.

- عرف العلامة الزمخشري بأنه على اعتزاله اعتنق مذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني في البلاغة القرآنية، فأخذ النقاد شرقا وغربا يعدونه المطبق الأول للبلاغة النظرية التي قننها ونظرها الإمام.
- اشتهر العلامة الزمخشري بالمدرسة البلاغية المسندة إليه أيضا بين الأوساط العلمية والنقدية لفرط ذكائه وحذق عطائه.
- يعد الكشاف للعلامة الزمخشري من عمدة كتب التفسير البلاغية، واحتل منزلة سامية بين الكتب لعمقه ودقته.
- ثمة إشكاليات أخرى تكتشف مواطن جديدة للدراسة والتحليل، وهي إلى أى مدى تأثر العلامة الزمخشري بالإمام؟ وإلى أى مدى يصح التعبير عن بلاغة مذهب العلامة الزمخشري بالبلاغة القرآنية الاعتزالية؟ وإلى أى مدى يصح اعتبار العلامة الزمخشري مدرسة مستقلة من الإمام في البلاغة القرآنية؟ أسئلة مطروحة تحتاج إلى بحوث مستجيبة لها.

الهوامش والإحالات

- (١). انظر ترجمته: معجم الأدباء (إرشاد الرب إلى معرفة الأديب)، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الأولى، عام ١٤١٤هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ج ١٩، ص ١٢٦. وإنباه الرواة على أنباء النحاة، جمال الدين، أبو الحسن، علي بن يوسف، القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، عام ١٤٠٦هـ، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، ج ٣، ص ٢٦٥.
- (٢). أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، (ب.ت)، مطبعة المدني بالقاهرة - مصر، ج ١، ص ٥٧.
- (٣). خطوات البحث البلاغي والنقدي بين النشأة والمنهج، محمد إبراهيم عبد العزيز شادي، الطبعة الأولى، عام ١٩١٩م، مطبعة التركي، الطنطا، ص ١٨٠، ١٨.
٤. سورة القصص، الآية: ٢٣.
٥. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو (جارالله)، الطبعة الثالثة، عام ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ج ٣، ص ٤٤٢.
٦. دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: د.عبد

الحميد

- هنداوي، الطبعة الأولى، عام ١٤٢٢هـ، دارالكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص ١٦١-١٦٢.
٧. سورة فاطر، الآية: ٢٨.
٨. الكشف، ج ٣، ص ٦٣٣.
٩. دلائل الإعجاز، ص ٣٣٨-٣٣٩.
١٠. سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.
١١. الكشف، ج ٢، ص ١١٤.
١٢. دلائل الإعجاز، ص ٢٨٦-٢٨٨.
١٣. سورة البقرة، الآية: ١٦.
١٤. الكشف، ج ١، ص ٦٨.
١٥. دلائل الإعجاز، ص ٣٨١-٣٨٣.